الفصل الثاني

((من أسرار التقديم في البيان النبوي))

قد يأتي الكلام على ترتيبه الطبيعي المعروف في علم النحو من تقديم الفعل على الفاعل والمبتدأ على الخبر ، والفاعل على المفعول وباقي متعلقات الفعل ، لأن ذلك هو الأصل ، وقد يخرج عن ذلك لمقتضى نحوي أيضاً كتأخير المبتدأ ، إذا كان نكرة ، والمفعول إذا كان ضميراً منفصلاً مما هو مستقصى في مظانه .

بيد أن البلاغيين نبهوا إلى تقديم آخر استدعته البلاغة وفقاً لمقتضيات الأحوال ترتيباً للكلام حسب معانيه في النفس المرتبة على قضية العقل ، أعني فكرة النظم كما أوضحها عبد القاهر ، والتقديم كنمط أسلوبي له أسراره وآثاره ، قال الإمام عبد القاهر رحمه الله «هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سببا راقك ولطفا عندك أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان آخر»[1].

وسنرى التقديم في البيان النبوي واسع الخطو ، عظيم الأسرار ، عميق المغزى يكشف عن اهتمامات النبي ﷺ ، وانفعالاته ، وأنحاء من دعوته تبشيرًا وإنذاراً ، ودعوة ووضعاً ، وتقريراً وتوكيداً وأعني بالتقديم ما قدم فيه اللفظ عن مكانه مع بقائه على حكمه كخبر المبتدأ إذا قدم على المبتدأ ، والمفعول إذا

---

(١) دلائل الإعجاز ، الجرجاني ص ٨٢

قدم على الفاعل ونحو ذلك ، وقد شغل تقديم الخير على الاسم مجالاً فسيحاً في التقديم النبوي .

تقديم الخبر وتقريره :

١- عن علي ﷺ قال رسول الله ﷺ «مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم»[١] .

وعنه كرم الله وجهه قال النبي ﷺ : «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار»[٢].

عن حفصة رضي الله عنها عن النبي ﷺ «على كل محتلم رواح الجمعة وعلى كل من راح الجمعة الغسل»[٣].

عن عبد الله بن مسعود : كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة فيرد علينا ، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد ، فسئل فقال «إن في الصلاة شغلاً»[٤].

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ : «إن للوضوء شيطاناً يقال له : الولهان فاتقوا وسواس الماء»[٥].

في هذه الأحاديث نلحظ فيها تقديم الخبر على المبتدأ ، أو تقديم خبر إن على اسمها كما نجد الغرض العام وراء هذا التقديم ـ تمكين هذا الخبر وتثبيته في النفس ، لأنه جاء على غير المعهود ، وفي هذا إثارة للعقل ، وتشويق إلى المبتدأ المؤخر ، وقد نجد المقدم بلفظه مثيراً غريباً كمفتاح الصلاة ، وتحريمها وتحليلها ، وقد جاءت المبتدآت تحدد ما قصد إليه ، وتتمم المعنى ، وفي مجموعة الصلاة نجد التمهيد للمؤخر لبناء الترغيب عليه «امشوا إلى الصلاة

---

(١) التاج الجامع ١٥٢/١
(٢) المرجع السابق ٢٥٢/١
(٣) المرجع السابق ٢٧٤/١
(٤) المرجع السابق ١٥٩/١
(٥) المرجع السابق ١٠٢/١

وعليكم السكينة» ، «على كل محتلم رواح الجمعة ، وعلى كل من راح الجمعة الغسل» ، إما باللفظ المثير في ذاته تشبيها ، «مفتاح الصلاة» أو بلفظ يعطي معنى الإلزام «على كل» «عليكم» أو بلفظ يفيد الأفضلية مسبوقاً بالتأكيد «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة» أما المؤخر فقد يأتي معرفة أو نكرة فيها عموم وتفخيم وإيحاء يغري بتتبعه «إن في الصلاة شغلا».

أما في حديث الوضوء فبعد تقرير الخبر «إن للوضوء شيطاناً» ، وإثبات هذا الحكم الغريب بطريق فيه تنمية للشعور وإثارة فسمى الشيطان بأسلوب فيه تجهيل : يقال له الولهان : ليصل بذلك إلى الأهم وهو اتقوا وسواس الماء ، تقريراً للإرشاد الذي شغل منافذ النفس والحس .

الترغيب في القرآن والذكر :

عن معقل بن يسار قال ﷺ : «قلب القرآن يس لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرأوها على موتاكم»[1].

عن ابن عباس عن النبي ﷺ : «أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»[2].

عن أبي هريرة قال ﷺ : «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر»[3].

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إن ما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورثه ، أو مسجداً أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه به بعد موته»[4].

والأسلوب في الأحاديث : يتعاون في تقديم حقيقة وإمتاع عاطفة ، فقلب القرآن يس بكلمة : قلب بلفظها الدال مقدمة مضافة إلى القرآن مدا في الغرابة

---

(١) التاج الجامع ٢١/٤
(٢) المرجع السابق ٢١٩/٢
(٣) المرجع السابق٨٦/٥
(٤) المرجع السابق ٧٥/١

وإثارة للانتباه ، ويأتي المبتدأ ليروي ظمأ النفس ، ولو قال «يس قلب القرآن مقتصراً على التشبيه لما كان له هذا السحر النافذ الممكن للخبر ، المثبت للمعنى».

والحديث الثاني : وضع لافتة مثيرة : «أحق ما أخذتم عليه أجراً» ، قد توهم أن الكلام في الأموال والأعمال حتى إذا جاء المبتدأ (كتاب الله) تقررت حقيقة جديدة بطريق ثابت ، وفي الثالث : قدم الخبر «إن لله» مؤكداً وقد دخلت اللام على الاسم العظيم فشد الانتباه إلى الاسم «ملائكة» متبوعاً بالوصف (يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر) تقريراً للحكم ولفظ الاسم والخبر مع سبق التأكيد فيه غرابة على عقل الإنسان وخياله ، لتعلقه بمن لا تراه العيون ولا يتصوره الخيال والأذهان تمكيناً وترغيباً في الذكر .

على أن غرابة الخبر مع تقديمه قد تنشأ من وقوعه في الدار الآخرة مسبباً عن المبتدأ الواقع في الدنيا كما في الحديث الأخير ، والخيال هنا يتمثل في ومضة عمر الدنيا وانقضائها بالموت ، وتخيل ما بعده مدهوشاً منبهراً كل ذلك يقوى الترغيب فيما دعا إليه ويمكن المعنى في النفوس ونلاحظ أن العطف في الخبر زاد من طوله وزاد عن التشويق وأعطى طاقة نفسية تستوعب ما دعا إليه وعلى قدر الأسلوب كله بطوله ، فلا يشط منه حرف ولا تند كلمة .

تقديم الخبر توزيعاً للفائدة وتصعيداً للمعانى :

عن عمر ﷺ عن النبي ﷺ «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها»[1].

وقال ﷺ : «إن لكل شيء شرة ، ولكل شرة فترة ، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه»[2].

---

(١) التاج الجامع ٥/٨٣ (٢) المرجع السابق ٥/٢١١

وفي الأول : بنى الحديث على التشويق في نسقه تمكيناً للمعنى ، وقد وجدنا توزيع الفائدة وتصعيد المعاني حتى تصل إلى نهايتها متوازية مع التتبع العقلى والشغف النفسي المتصاعد «إن من عباد الله لأناساً» أكد الكلام بإن واللام وأثار بتقديم الخبر ثم أتى بالاسم نكرة مجهوله إغراء بالتتبع ـ ثم جاء الوصفان:ما هم بأنبياء ولا شهداء ـ بالنفى ثم إثبات غبطة الأنبياء والشهداء لهم، وتقييد الغبطة بأنها يوم القيامة ليصل بالإثارة حدا لا يسكت عليه فيسألون من هم ؟ فيأتي الجواب يطمئن النفس ويرد أشواقها (هم قوم تحابوا بروح الله) كما نجد هذا التتبع النفسي في الحديث الثاني وقد ساهم تقديم الخبر على وقع الإثارة وتصعيد المعاني التي تمسك بالمشاعر تصعد بها حتى يصل الحديث إلى نهايته مسبغاً مقنعًا مؤكداً بطريقة لا تنسى .

التشويق بالتقديم والعموم أو بماله من تعلق بالشعور :

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : «إن لله مائة رحمة أنزل منها واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام»[1].

عن بريدة عن النبي ﷺ «إن من البيان لسحراً ، وإن من العلم جهلاً ، وإن من الشعر حكماً ، وإن من القول عيالاً»[2].

وفي الحديث الأول : قدم الخبر زيادة في التشويق للخبر ذلك أن الأسلوب وصف لحقيقة خاصة بالله طرفاها الله والخلق ، وتقديم الخبر مؤكداً بإن «إن لله» يثبت هذا المبتدأ الشعوري «مائة رحمة» بهذا العدد المجزوء حثًا على تتبع هذه الأجزاء ، وتقسيمها تقريراً في النهاية للغرض العام وهو وصف الله بالرحمة المطلقة تأميلاً للإنسان في رحمته سبحانه .

والثاني : إن من البيان لسحراً . . . قدم الخبر مؤكداً بإن مدخولاً لمن التبعيضية مع ما فيه من تعشق القلوب له وصبوة النفوس إليه «البيان ـ العلم ـ

---

(١) التاج الجامع ١٥٧/٥ (٢) المرجع السابق ٢٨٢/٥

الشعر ـ القول حكما ـ عيالاً» وهذه الأحكام ضرب من الحقائق التى لا يعقلها إلا العالمون .

تعجيل البشرى والمسرة مع الترغيب :

عن سهل بن سعد قال ﷺ «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[1].

عن حكيم بن معاوية عن النبي ﷺ «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد»[2].

عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ : «إن في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون»[3].

وفي هذه المجموعة قدم الخبر مؤكداً أو مرسلا أو مقيداً لتعجيل المسرة والترغيب والتعظيم «إن في الجنة لشجرة» «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر» والجنة مثيرة يعمل لها العاملون ومن يستحقها له ما فيها ، ولعلنا نلحظ هنا في الحديث الثاني : تقديم الماء لأن به الحياة ـ حسبما يعرفون في دنيا الصحراء ـ ثم العسل زيادة في الإغراء لمحبة العسل طبعاً ، ثم اللبن وهم يعتمدون عليه غذاء ، ثم الخمر لأنها كمال وتنعيم مع الإيماء إلى موقف الدين منها فهي مؤخرة حتى في الأخرى .

ومن أحاديث الجنة : «في الجنة ثمانية أبواب» والتقديم هنا أثار الانتباه وعجل البشرى وشوق إلى المبتدأ وأنه خبر ، وهذه الجملة مقدمة لأخص منها فيها «باب يسمى الريان» والتقديم زاد الإثارة مع إخفاء الفاعل إيذاناً بشهرة «الباب» وبذلك يصل الشوق مداه حتى تأتي العبارة الثالثة «لا يدخله إلا الصائمون» كالثمرة من الكلام والقمة التي وصل إليها الشعور ، والحل الذي انفكت عنده العقدة فأراح النفوس وثبت المعنى وأكد الغرض وهو الدعوة إلى الصيام ـ مع الجمال في تسمية الباب «الريان» مناسباً لظمأ الصائمين .

(١،٢) التاج الجامع ٤٠٦/٥ (٣) المرجع السابق ٤٠٣/٥

تعجيل المساءة مع النكير :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « إن من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق ومن الكبائر السباب بالسبة »[1].

عن جبير بن مطعم قال عليه الصلاة والسلام « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[2].

عن جابر عن النبي ﷺ « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »[3].

وقد قدم الخبر لافتة غاضبة ترتفع بالنكير وتهز الوجدان وتوجه الذهن المأخوذ إلى ما بعدها (المبتدأ) وفيه يكمن سبب هذه الثورة :

إن من أكبر الكبائر : استطالة المرء في عرض أخيه

من الكبائر السبتان بالسبة

ليس منا : من دعا إلى عصبية .

إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة

والنكير بوقعه المخيف الثقيل في نفس المؤمن بين مدى الترهيب والوعيد في هذه الأمور ونقدم هذه الملاحظات :

١- في الحديث الأول : كرر الخبر المشحون بالوعيد مع انفراد الأول بالتأكيد (إن من أكبر الكبائر) دون الثاني مناسباً لقدر الذنب وأثره الاجتماعي .

٢- وفي الثاني تكرر الخبر المقدم ، علاجاً لما هو كالطبع في الإنسان خاصة العرب وهى مشكلة تقاسي منها المجتمعات والأمم وعلاجها بهذا الميسم « ليس منا » بذاك النفي القاطع للمتعصب عن دين الإسلام . ونلاحظ اقتضاء النظم التسلسل في الحدث حتى يصل إلى نهايته المتشعبة فهناك دعوى للعصبية ثم هناك قتال في سبيلها ثم الموت وبه تبدأ ـ في الخيال ـ قصص مكرورة مفزعة ، والعلاج وضع بداية لبتر كل هذا .

---

(١) التاج الجامع ١٧٠٢٦/٥ (٢) المرجع السابق ٤٦/٥

(٣) المرجع السابق ١٤٠/١

٣- والثالث : تقدم الخبر المؤكد ، وآثار العطف والأول «وبين الشرك» والثاني «والكفر» بهذا التكرار المعنوي وعيدًا قويًا دافعًا لمعرفة ما يوعد عليه (ترك الصلاة) .

التقديم لاستحضاره في الذهن :

عن النبي ﷺ :

١- «إن تحت كل شعرة جنابة ، فاغسلوا الشعر ، وأنقوا بالبشرة»[١].

٢- «إن من أشرط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، وتشرب الخمر ، ويكثرالنساء ، ويقل الرجال ، حتى يكون لكل خمسين امرأة قيم واحد»[٢].

وقد قدم الخبر في الحديث الأول لاستحضاره في الذهن كاملاً ، تمهيداً للاسم وما فيه من حكم غريب ، «إن تحت كل شعرة جنابة» تمثلاً لكل جزئياته حتى يعم الحكم وفيه شبه من تنفير ليتوصل بذلك إلى التوجيه النبوي وهو نتيجة لما تقدم : «اغسلوا الشعر وأنقوا البشرة» فيصادف في النفس قبولاً وتمكناً .

والحديث الثاني : إنباء عن غيب وجاء فيه الخبر مقدماً «من أشرط الساعة» وفيه إثارة واستحضار في الخيال فهذا الذي شغل العقول ، وقد سبق الخبر دون تأكيد كما تساق الحقائق لأن الأهم هذه العلامات التي شوق إليها تقديم الخبر ، وهى جملة من الرذائل يرفضها العقل والضمير تنفيذاً منها وإجبارا بغيب خطير .

التعبير عن شعور خاص :

كقوله ﷺ ردًا على من يريد الرهبانية ، «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[٣].

---

(١) التاج الجامع ١/١١٥ (٢) المرجع السابق ٥/٣٣٥

(٣) المرجع السابق ١/٤٩

وفيه إنكار على من يود الرهبانية منصرفاً عن دفع عجلة الحياة وتعمير الكون ، والخلافة في الأرض .

وقد تقدم الخبر وهو معلوم من واقع الحياة المحمدية ، وأكد بـ« إن» مع فصل الضمير تعبيراً عن شعور نبوي هادر ، وإنكار غاضب على من يريد الرهبانية في الإسلام ، وهو دين الفطرة السمحة .

تقديم المفعول :

(١) إرادة التخصيص

١- عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ : دعوات المكروب : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت»[(١)].

٢- عن سلمان عن رسول الله ﷺ «لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر»[(٢)].

٣- قال ﷺ «والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[(٣)].

والحديث الأول : في مقام الكرب ونزول البلاء ، وقد وفى به الأسلوب ، فقد بدئ الدعاء باللفظ الأقدس «اللهم» تضرعاً ، ثم أتى بالمفعول «رحمتك» مضافًا إلى ضمير الجلالة ـ جل وعلا ـ مقدماً على الفعل «أرجو» ليفيد أن كل المطالب والمنى انحصرت في رحمة الله تعالى لا تتعداها ، ماحقة للكرب ، دافعة للبلاء .

---

(١) التاج الجامع ١٢٨/٥ (٢) المرجع السابق ١١١/٥

(٣) المرجع السابق ١٦٠/٥

والحديث «لا يرد القضاء إلا الدعاء» قصد بالتقديم توجيه الحصر في الفاعل مع ما في التقديم من إثارة ، لأن مصير الناس على القضاء ، والنفى شاغل للذهن ، والإثبات ملهب للفؤاد ، حافز للدعاء .

أما الحديث الثالث : «ما الفقر أخشى عليكم» فقد ولي المفعول المقدم أداة نفي وذلك يفيد عند البلاغيين ـ وقوع الفعل حتماً ، ثم اعتقاد المخاطب وقوعه على مفعول خاص ثم نفى المتكلم لهذا المتقدم وإثباته بغيره ، وهو «بسط الدنيا» كما وضحه الحديث ، وأهمية التقديم هنا أنه يرد على المخاطبين اعتقادهم ، ويصحح لهم خطأهم ، فالفقر مصدر رعب للإنسان ، لكنه لا خوف منه على المؤمن ، بل مصدر الخوف : الثراء وما يتبعه من الطغيان وانطلاق الغرائز المهلكة وفي الحديث حد من النفور من الفقر ، وحد من التكالب على الغنى .

الترهيب :

١- عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ : «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع ، كما ينماع الملح في الماء»[(١)].

٢- عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «لا يدخل الجنة قتات»[(٢)].

٣- عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل»[(٣)].

وقد تقدم المفعول قصداً تمكيناً لإفادة الترهيب :

والحديث الأول تحذير من الكيد لأهل المدينة ، ولذا أخر الفاعل مجهلاً منكراً عامًّا لكن المفعول «أهل المدينة» بما لهم من حرمة وجوار للنبي ﷺ ونصرة للدين هم هدف الحديث ، ولذا جاء جزاء الكائد مؤكداً بطريق القصر والتشبيه القوي .

---

(١) التاج الجامع ١٨٥/٢ (٢) المرجع السابق ٢٤/٥

(٣) المرجع السابق ٤١/٥

والجنة تهفوا إليها النفوس ، فإذا جاء الفعل المنفي «لا يدخل» ثم بوشر بالمفعول «الجنة» انبعث الخوف جارفاً مع التلهف لمعرفة المحروم منها ، فإذا ما بين بصفته المنفذة «قتات» (نمام) ـ مخب ـ منان ـ لئيم ـ بلغ التنفير والترهيب من الصفات وأصحابها كل غاية .

الترغيب :

١- عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»[١].

٢- عن عبد الله بن شفيق عن النبي ﷺ «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قيل : يا رسول الله : سواك ؟ قال : «سواي»[٢].

٣- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع»[٣].

وفي الحديث الأول يكون الأسلوب بالجمع بين متنافرين بين ممنوع من النار ومحروم من الجنة ، وسبب هذا أقل ما يتصور الخيال من الإيمان لو جسم ، وأهون ما يتمثل من الكبرياء ترغيباً في الأول وترهيباً في الثاني ، وقد قدم المفعول على الفاعل ، «لا يدخل» تعجيل بالبشرى ، وترغيب في الإيمان ، وتقديم الجنة بعد «لا يدخل» تعجيل بالسوء وحرمان مما تمثله الخيال من روح ونعيم ، ومثل الأول : «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله» وتقديم المفعول المنفي تشويق للفاعل المؤخر وتعظيم له ، ودعوة إلى ما اتصف به وقد علق دخوله النار على مستحيل ملموس مع التصوير الجميل تأكيداً للترغيب .

---

(١) التاج الجامع ٣٢/٥

(٢) المرجع السابق ٣٩٢/٥

(٣) المرجع السابق ٣٠٦/٥

وفي الحديث ـ بعد ـ قدمت الجنة بعد فعل مثبت مدا في الرجاء وقطعاً لليأس في شفاعة الأتقياء ، والترغيب في الرجاء والأمل في الله طب نبوي لا يزال يتناوب مع الخوف والتخويف للإنسان المسلم حتى يطهره تطهيراً .

أغراض أخرى :

١- عن حذيفة قال : رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم»[١].

٢- قال ﷺ «ليعز المسلمين في مصائبهم ، المصيبة ربي»[٢].

٣- عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة»[٣].

وفي حديث حذيفة قدم المفعول على الفاعل «ويرث دنياكم شراركم» وقد جاءت العبارة خاتمة الحديث كالمحرك لما سبقها من أحداث ، فمن علامات الساعة قتل الحاكم ، وكثرة الفتن والقتال ـ وبقاء الدنيا بين جماعة الأشرار ، ولأنهم أشرار فقد ورثوا الدنيا ، وتقديم المفعول ـ مع حقارته ـ عناية به لأنه أس البلاء ثم تمهيد إلى الفاعل بعد تشويق «شراركم» والدنيا بما فيها في يد شرير إنما هي الفتنة والبلاء الكبير .

وتقديم المفعول «المسلمين» في الحديث بعده سلوان وعزاء لمن نكب في الدنيا من المسلمين وفي خصوص الوصف بالإسلام وشمول الفعل له وإيلاء الجار والمجرور للمفعول «في مصائبهم» تشويق كبير إلى الفاعل الذي يهز الوجدان ، ويفيض عن العزاء وتصور الإخبار من النبي الرحيم عن نفسه أمر رهيب لا يطيقه الحس الإنساني ، وفيه شفافية وتأثير عظيم .

وفي الحديث الأخير «لا يصيب المؤمن شوكة» قدم المفعول بوصف الإيمان تقوية للإرادة وحثًا على الصبر وتمهيداً للجزاء العظيم تدعيماً للترغيب والحث على الصبر .

---

(١) التاج الجامع ١/٣٨٠ (٢،٣) المرجع السابق ٣٤٥

المتعلقات : التقديم للتخصيص

(١) في التضرعات

عن أبي هريرة كان النبي ﷺ إذا أوى إلى مضجعه قال : «باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١].

عن أبي سعيد : من رقية النبي ﷺ وقد رقاه بها جبريل عليه السلام «باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك»[٢].

وعن أنس : عن النبي ﷺ : «اللهم أنت عضدي ونضيري بك أحول وبك أصول ، وبك أقاتل» وكان يقولها إذا غزا[٣].

عن أنس كان ﷺ إذا كربه أمر قال : «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[٤].

وقد قدم المتعلق في هذه المجموعة ، من حرف جر دخل على اسم الله ، باسمك «باسم الله» أو ضميره «بك أحول وبك أصول» أو حرف جر داخل على صفة له سبحانه : «برحمتك أستغيث» ، والمقدم هنا المقصور عليه ، وهو قصر حقيقي استدعاه مقام الإخلاص الكامل والالتجاء المكين ، والتضرع الصادق إلى الله تعالى في مقام يستدعي ذلك من حرب ظالمة ، أو مرض مخيف ، أو كرب نازل ثناء عليه وتمجيداً لما يؤمل معه إجابة الدعاء .

التخصيص للتشريع :

عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ مسح على الخفين فقلت يا رسول الله نسيت قال : «بل أنت نسيت بهذا أمرني ربي عز وجل»[٥].

---

(١) التاج الجامع ٣١٧/٤
(٢) المرجع السابق ٣١٦/٣
(٣) المرجع السابق ٣٧٠/٤
(٤) المرجع السابق ٣٤٢/٤
(٥) المرجع السابق ١٠٥/١

عن سليمان بن بريدة أن النبي ﷺ صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد ومسح على خفيه فقال له عمر : لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه قال : «عمداً صنعته يا عمر»[1].

وهذه المجموعة دفع إلى التخصيص فيها هذا التشريع الذي كان غير مألوف لهم ، ولذا كان تأكيده المضاعف ، وتقديمه المفيد للتخصيص ، من أسباب ثبات الحكم وترسيخه .

فالمسح على الخفين فيه غرابة لم يتوقعوها - وهو تشريع سماوي - ولذا فقد ظن المغيرة وعمر نسيان النبي ﷺ ، فجاء الأسلوب ينفي اعتقادهم ويثبت عكسه «بهذا أمرني ربي» «عمدًا صنعته يا عمر» وفي هذا التخصيص أيضاً بيان أنه من عند الله ولا مفر منه تيسيراً على الناس كما أن فيه مسحة من العتاب للتدخل في أمور تشريعية نزلت تخفيفاً ورحمة .

التخصيص للتحسر والإنكار :

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة» ، قال : «فيجيء السارق فيقول : في مثل هذا قطعت يدى ، ويجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[2].

٢- عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في وصف مشهد من العذاب يوم القيامة «فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي»قال«فتنطق بأعماله قال : ثم يخلي بينه وبين الكلام» فيقول : «بعدًا لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل»[3].

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان فقال :«أبهذا

---

(١) التاج الجامع ١٤١/١
(٢) المرجع السابق ٣٣٢/٥
(٣) المرجع السابق ٣٧٢/٥

أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم . عزمت عليكم عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[1].

والتخصيص في الأولين يفيد شدة التحسر والتندم: في مثل هذا قطعت يدي، وكذا القاتل وقاطع الرحم ، والتقديم يشع بموجات من الألم النفسي الحاد والحسرة المرة مع احتقار هذا الذي تكالبوا عليه ، ونلاحظ دقة الأسلوب ، فالسارق مقطوع اليد لم يأخذ ما أراد ولذا قال : في مثل هذا ، بينما القاتل والقاطع حازا الذهب والفضة وربما كان ما يريان في ملكهما يوما ، ولذا قال القاتل : في هذا قتلت ، والآخر : في هذا قطعت رحمي دقة متناهية في التعبير عن أخفى المشاعر والحالات .

والحديث بعده «عنكن كنت أناضل» يكاد ينفجر الأسلوب أسفاً ، في موقف صارت فيه الجوارح خصماً له فشهدت عليه بعد أن ختم على فيه ، وحين أطلق لسانه ثار ساخطًا معنفاً مقهوراً بعد أن صارت جوارحه كالعاقلة بشهادتها : والتقديم «عنكن» : يفيد قصر النضال من المعذب عليها إنكاراً وتفريعًا ، وألماً نفسيا لا يطاق .

وفي الحديث الأخير استدعى التخصيص مقام الإنكار الشديد والتوبيخ لمن أفاضوا في القدر ، وهو مجال ضل فيه كثير لأن في معرفة حقيقية نقص لحكمة علوية من الاستئثار بعلم الغيب وأسرار الأقدار ونظام الكائنات مما لا يطيقه بشر ، ولهذا قدم المتعلق مشارًا إليه إحضاراً له في الذهن وهو «التنازع في القدر» تشنيعاً وتقبيحاً وجعله مدخول الاستفهام الإنكاري لانصباب النكير عليه كأنه قال : «ما بهذا أمرتم ، وما بهذا أرسلت إليكم بل بغيره مما تعلمون» ، والانفعالات تتشابك من وحي هذا التقديم من الغضب والتعنيف والرحمة والخوف عليهم والتخويف بما حدث للأمم السابقة .

---

(١) التاج الجامع ١٩٣/٥

التخصيص للتعظيم :

١- عن جابر أن النبي ﷺ قال لرجل كيف تقول في الصلاة قال : «أتشهد وأقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ» فقال : «حولها ندندن»[(١)].

٢- عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[(٢)].

والحديث الأول سمى العمل دندنة مشاكلة لكلام الأعرابي ، ولقد اقتضى البيان النبوي اختيار اللفظة : «حولها» لأن النشاط الإنساني على اختلافه مقصود به العمل وفق سنن الله تعالى ، وإرضاؤه سبحانه ، وذلك سبب في دخول الجنة ، فكأن الصلوات والأعمال والأقوال دندنة حولها وفي سبيلها وحدها ، وذلك تعظيم للجنة ولآلها .

والحديث الثاني : نلمح مع التخصيص : التوقير والتعظيم «بك أمرت» فقد قدم المتعلق لذلك وأكدت الجملة الثانية المفهوم من الأولى كرامة وخصوصية وفضلاً له ﷺ .

التأكيد :

عن عقبة بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة : قال : «أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[(٣)].

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ «يأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعب الجبال ومواقع النظر ، يفر بدينه من الفتن»[(٤)].

---

(١) التاج الجامع ٥/٢١٨
(٢) المرجع السابق ٥/٤١٧
(٣) المرجع السابق ٥/١٨٣
(٤) المرجع السابق ٥/١٨٥

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ « إن الله خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم »[1].

وتدعيم الغرض في الأحاديث اقتضى التأكيد ، فقد قدم في الأول « عليك » على المفعول الأول « لسانك » تأكيداً لإمساك اللسان ودفعاً إلى التحكم فيه وتحذيراً من آثاره ، كما نجد الثاني يخبر عن فتن ستحدث : وقدم المتعلق « على الناس » تأكيداً وعناية لأنهم موضوع الأحداث ومادتها ، وتخويفاً أيضاً ، ولا يخفى ما في الحديث من إرشاد قوي غير لأجلّه النظم فقدم خبر كان « خير مال الرجل » على اسمها « الغنم » مسارعة في الإرشاد لمن يريد لنفسه الغنم والظفر ، كما لا يخفى الأسى الخفيف وراء عبارات الحديث .

والحديث الأخير يتكلم في القدر يوحي بوحي ، وقدمت « للجنة ، للنار » على المفعولين تأكيداً ومزيد عناية لأنهما مدار اهتمام الإنسان ، وكما أن القدر أكبر من عقل المرء وطاقته ، فقد توخى ذلك في أسلوب الحديث من تقديم وربط بين الجنة والنار وهما في الآخرة وبين خلق الإنسان حتى وهو ـ بعد ـ لم يكن شيئاً مذكوراً ، والخيال يتعمق هذه المجاهيل ، ويؤخذ بهذا القهر ، في الغرض والأسلوب جميعاً .

التقديم والتعبير عن الرحمة والألم :

عن أبي ذر عن النبي ﷺ : « سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ويسيئون العمل »[2] ، وعن ثوبان عليه السلام : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين »[3].

---

(١) التاج الجامع ١٩٧/٥

(٢) المرجع السابق ٣١٤/٥

(٣) المرجع السابق ٣٠٣/٥

عن أنس عن النبي ﷺ حين مات ابنه (إبراهيم عليه السلام) « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[1].

وفي الأولين : نجد التزام لفظ واحد (أمتي) مقدم على الفاعل في الأول والمفعول في الثاني تعبيراً عن شعور الرحمة والأسف لما يصير إليه حال الأمة على أيدي دعاة الفتنة ، والإثم ، ثم فيه حث على لزوم الجماعة ، ومحاربة الفتن والنظور من الفرقة .

والحديث الأخير : مرآة لأطهر شعور وأقدس إحساس : حزن نبي فقد وحيده على كبر ، وقد تقدم المتعلق « بفراقك » لأنه سبب الأسى ومدار الحزن واللوعة وإنه لتعبير ذاتي عن شعور جريح ضعيف مستسلم لقدر الله العظيم . وقد ساعد التقديم على إعطاء إيقاع خاص يعبر عن هذا الشعور .

لمزيد العناية وبيان دوره في الحكم :

وقد يتقدم متعلق له دور في المعنى العام بأن يكون مدار الحكم ، أو ممهداً له عناية واهتماماً وسبكاً وملائمة للمعنى : كهذه الأحاديث :

١- قال ﷺ « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت إلا كان من أصحاب النار »[2].

٢- عن ابن عمر عن النبي ﷺ « من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له باب الرحمة »[3].

٣- حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ « يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع »[4].

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٤٥
(٢) المرجع السابق ١/٣٥
(٣) المرجع السابق ٥/١١٠
(٤) المرجع السابق ٥/٤٣٠

والحديث الأول : فيه خطورة في الحكم ولما كان رسول الله ﷺ هو المبعوث خاتم النبيين ، وصاحب الرسالة العامة ، وقد أمر بتبليغ ذلك نجد اسمه الشريف ، ثم ضميره العظيم مرتين مع القسم الدال ، والالتفات المثير من الظاهر «محمد» إلى المتكلم «بي» وعموم النكرة «أحد» في سياق النفي ، ثم إطالة السياق تبريراً للجزاء ، مع الترقي بـ«ثم» وتصريح بعدم الإيمان بالرسالة التي جاءت بالاسم الموصول «الذي أرسلت» المفخم لصلته ثم تختم بالجزاء عن طريق القصر ، لأن صلاح العالم بهذه الرسالة ، والتقديم هنا لعب دوره المتسق مع باقي الحديث ـ لبيان العناية الكاملة بالرسول ذاته (بي) لأنه مصدر التشريع المبلغ عن ربه ـ وقد مكن التقديم أيضاً من التفصيل في الفاعل تعميماً أولاً ثم تخصيصاً على سبيل التوضيح والمبالغة «يهودي ولا نصراني» رفعاً لمنزلة النبي وشريعته الماحية شرائع السابقين .

وحديث ابن عمر قدم «له» مرتين عناية تعجيلاً بالمسرة إذا الخير كله راجع للإنسان المتضرع إلى الله ـ وما أروع هذه اللافتة الأسلوبية بإفراد «باب» مضافاً إلى الدعاء ، وفي الجزاء نجد انهمار الرحمة لا من باب بل من أبواب بياناً لكرم الله وفيض رحمته وترغيباً في الدعاء . والحديث الأخير ذكر المتعلق مقدماً «على أهل النار» ليترتب ما يلائمهم من جزاء فأبرزهم أولاً إحضاراً لهم ذهناً ، تخويفاً وتبريراً لما نيط بهم من عذاب .

التقديم للاستبعاد والإنكار :

١- قال عليه الصلاة والسلام : «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ»[١].

٢- عن أبي سعيد بن أبي فضالة عن النبي ﷺ «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد ، من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[٢].

---

(١) التاج الجامع ٣٦١/٥ (٢) المرجع السابق ٥٩/١

والحديث الأول : يعبر عن شعور نبوي خائف من فجأة القدر بقيام الساعة ، وقد قدم من «الحال» كيف الاستفهامية لتفيد استبعاد أن ينعم النبي ﷺ بينما إسرافيل آخذ أهبته أن ينفخ في الصور ، والصورة التي رسمها الحديث تدعم هذا الشعور من إنكار وخوف واستبعاد ، ورغبة عن زائل النعيم ، والحق أن هذا الإنكار والاستبعاد موجه بطريق التعريض للناس أن يتزودوا بالتقوى لكمال النبي فيها .

والحديث الثاني : خاص بالعهد الأخروي وقد قدم المتعلق على المفعول «أشرك في عمل عمله لله أحداً» تفظيعاً وإنكاراً شديداً لهذا العمل المشترك والمقام قهر وجزاء ، ولذا تأخر المفعول إهمالاً واحتقاراً مع تنكيره المتعمد مع الدعوة إلى الإخلاص في العبادة لله وحده .

مقتضى النظم :

نلتقي هنا بأساليب سبقت في غرض عام واحد ولكن توخى فيها اختلاف في ترتيب الألفاظ على نمط خاص استدعاه المقام ، فغير وبدل ، أو قدم في أسلوب المتأخر في آخر ، ولا يمكن أن يحدث هذا في البيان النبوي كيفما اتفق ، وإنما هي خطة بيانية صادقة في التعبير عن المعاني المرتبة في النفس على نظام العقل مناسبة لغرضها ومقامها الخاص ونكتفي بما نورد .

عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما قال : رأى أبي أن له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» رواه البخاري والنسائي[1].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أبغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» رواه أصحاب السنن بسند صحيح[2].

وواضح اختلاف الروايات والرواة مما يدل على صدورها في مناسبات مختلفة تناسب مقاماتها ، والحديث الأول رواه ابن سعد : وسعد بطل من أبطال

---

(١) التاج الجامع ٣٥٨/٤

(٢) المرجع السابق ٣٥٩/٤

الإسلام الأوائل وواحد من أغنياء قريش لقب بفارس الإسلام وجمع له ﷺ أباه وأمه في غزوة «أحد» حين كان يرمي عنه قائلاً : «ارم فداك أبي وأمي ارم أيها الغلام الحزور»[1] ، وحين يتوهم سعد أن له فضلاً على غيره قوة ونصراً يرد عليه الرسول خطأه ، وينفي توهمه «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» بهذا القصر الدال المؤكد ، فقدم النصر على الرزق مظنة أن النصر لا يكون إلا من الأقوياء مناسبة لحال سعد وعطف الرزق لاستقصاء الحال وإنهم بالضعفاء يجتمع لهم النصر والرزق أيضاً درساً في التواضع والتفويض وعدم الغرور .

لكن أبا الدرداء رجل طيب القلب ضعيف ، وصدر الحديث دال على التواضع : أبغوني الضعفاء بمعنى أحضروهم أستأنس بهم ، والخيال يسرع إلى الفقر لارتباطه بالضعف والوهن غالباً ، ولما كان هذا الضعف مظنة الفقر الدائم نفى هذا التوهم ، ورد ذلك الظن ، ذلك بأن الرزق من عند الله ينزل بسبب هؤلاء الضعفاء لصفاء قلوبهم وكذلك النصر أيضاً لإخلاصهم في دعائهم فهم قوة على كل حال لأنهم مع الله على كل حال .

وذاك مثال آخر :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : طول الحياة ، وكثرة المال»[2] رواه الشيخان والترمذي .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «يهرم ابن آدم ، ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر» رواه الشيخان والترمذي[3].

ونلاحظ في حديث أبي هريرة أنه أخبر ابتداء عن حال حاضرة هي قلب الشيخ ومع الشيخوخة نجد المنى تمور فيه قوية فتية ، فقلبه شاب يحب أمرين مرغوب فيهما طول الحياة وكثرة المال ، وقدم «طول الحياة» لأن الذي

---

(١) انظر : التاج الجامع ٣٤٥/١٣ ، والحزور : ضيق العينين دلالة الاهتمام .

(٢) التاج الجامع ١٦٣/٥ (٣) المرجع السابق ٦٨/٥

تقادمت أيامه لا يزال يتشبث بالحياة وينفر من الموت ، ولما كانت الشيخوخة تقترب من النهاية المخيفة كان همه الأول البقاء وطول العمر ، أما المال فهو وإن كان محبوباً ـ مع كثرة الخبرة ـ قلب يأتي ويذهب ثم إن شهوات الشيخ الي كانت تجمح به في شبابه قد خمدت ولم يبق إلا رمادها الحار ، أما حديث أنس فنلاحظ أن المضارعين المتجددين يهرم ويشيب يوضحان القصد إلى وصف طبع في الإنسان (ابن آدم) ذلك الذي تلازمه من الصغر صفتان قويتان شابتان لا تهرمان وإن تفاوتتا ، والمرء في شبابه لا يستوقفه التفكير كثيراً في النهاية إن فتاء الشباب وغروره وارتباط الموت بالهرم في الأذهان ـ يطمس البصيرة عن النظر إلى المستقبل فلاهم له إلا المال فهي صفة لها المقام الأول ، وحين تورط المرء ، مغامراته ويجد الموت غير بعيد يتشبث بالحياة بدافع غريزي ، فالصفتان كامنتان فيه ، يتناوبانه قوة وأهمية حسب فترات الحياة من صبية وشباب وشيخوخة لا جرم أن مقتضى الحال في بيان النبوة هو المتحكم في نسق أسلوبه أو خصوصية نظمه ، وتسلك صفة لازمة له على كل حال .

نمط آخر من مقتضى النظم :

وقد نجد نمطاً من اقتضاء النظم ـ في العبارة الواحدة بالترتيب الخاص الذي يلائم فكرة وشعوراً ، ويناسب الغرض ، ويؤدى المعني ، ونقتطف هاتيك الزهرات : شكا خالد بن الوليد ﷺ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق ، فقال : « إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط علي أحد أو أن يبغي علي ، عز جارك وجل ثناؤك »[1] .

وهنا التسلسل المنطقي من البدء بالأعظم من الظواهر الكونية التي تلقى في الوجدان هولاً لا يعرف مأتاه ، فالسموات فوق هذا الغلاف الغازي الأرضي لم

---

(١) التاج الجامع ١٣٨/٥

يعلمها أحد حتى الآن ، وما أظلت مما لا يعلم إلا الله ، ثم «الأرضين» وما أقلت مما يدخل تحت دائرة الحس وما لا سلطان نحس عليه ضخامة وتجهيلاً له وقعه المزلزل في الأعماق ، وإن كان أدنى من سابقه .

ثم هذا الصنف من المخلوقات الغريبة على هذا الكوكب ، مثيرة في نفسها مؤثرة بوسواسها المخيف ، الذي يدرك أثره ولا يعرف مصدره ، وكم أضلت من بشر «الشياطين» وهذه الظواهر الكونية التي ينكمش أمامها العقل وكل قوى النفس ، والكائنات المرهوبة الظاهر منها والخفي إنما هي جميعها مربوبة لرب مقتدر يدفع البلاء ويفرج الكروب ، فأي عقل وأي خيال وأي وهم لا يعنو أمام عظمته تعالى .

وحديث آخر :

عن لبانة بنت الحارث قالت : «كان الحسين ﷺ في حجر رسول الله ﷺ فبال عليه فقلت : «البس ثوباً ، وأعطني إزارك حتى أغسله» قال «إنما يغسل من بول الأنثى وينضح من بول الذكر»[1] وقد يظن أن الأولى تقديم المتحدث عنه وهو بول الذكر لكن الواقع أن هنا تدرجاً في الحكم يبدأ بالفعل وهو ما أرادته «لبانة» خطأ ، في بول الذكر فصحح لها خطأها بإثبات الغسل وتغيير المغسول منه يجعله بول الأنثى لما أرادت تغسل إزاره ثم أتى إلى بول الذكر ـ وهي الواقعة ـ فبين الحكم فيها بالنضح فقط ، والبراعة هنا في انتهاز فرصة ملائمة لوضع تشريع عام .

ـ وثمة لون آخر من النظم :

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2].

عن أم كلثوم بن عقبة عن النبي ﷺ : «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً»[3].

---

(١) التاج الجامع ٨٧/١ (٢) المرجع السابق ٤٧/٥

(٣) المرجع السابق ٤٣/٥

وفي الحديثين قلب للمتعارف عند الناس ، والأصل ليس الصرعة بالشديد ، وليس الذي يصلح بين الناس الكذاب ، ولكنه أعطى مفهوماً جديداً لعلاج حالات الغضب والترغيب في الإصلاح بين الناس ، وقد غير المفاهيم لتلائم الغرض العام ، فكأنه قال : ليس الشديد البالغ في القوة الجسمية الذي يصرع الناس ، بل أعظم من ذلك ، إنه الذي يكظم غيظه ، ويملك نفسه عند الغضب ، وليس الكذاب هذا الصنف الكريم من الناس الذي يصلح بينهم بل غيره ، مبالغة في كظم الغيظ ، والعفو عن الناس وترغيباً في الإصلاح بين الناس ولو بطريق غير طبيعي ، ولا بأس هنا أن نشير إلى حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار فبدأوا يبتهلون إلى الله بصالح أعمالهم . وذكر الأول بره بوالديه ، والثاني عفته وتركه ابنة عمة المحتاجة التي كان يحبها ، وأراد النيل منها ثم تركها وترك المال بعد أن سنحت له الفرصة ، والثالث : استأجر أجيراً ترك أجرته نماها له حتى ملأ الوادي أنعاماً ، ثم جاء الأجير يطلب أجره فأعطاه ما نماه ، والحديث بطوله في الجزء الأول من كتاب التاج صفحة ٥٢-٥٤ ، وللأديب الرافعي ملمح خاص في أسرار النظم وفلسفة الحديث والتدرج الخلقي المقتضى هذا الترتيب يقول « هو الحب بادئاً من الولد لأبويه ، وهو الحب الخالص ، ثم من المحب لحبيبته وهو الحب الأخص ، ثم من الإنسان للإنسانية وهو مطلق بعمومه . وتعد أسبابه الملحة من الحاجة والغريزة ، وهي درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها إلى الشيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل ، ثم إنه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة فما قبلها أنواع منها فبر الولد أمانة الطبع المتأدب ، وهذه المحبة أمانة القلب الكبير ، والثالثة : أمانة الخلق العالي وهي أسماهن ، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ودخل في أسبابها الأدب والكرم ، فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة الإنسانية العامة ، المتصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب وأم أو قريب ، ودونه التي هي أخص

وهي إنسانية الحب . . . وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التي ينتهى إليها كلامه ﷺ أن تنشئة الناس على البر والعفة والأمانة الإنسانية هي وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة .

وانظر كيف جعل نهاية السمو في رحمة المال الذي يصفونه بأنه شقيق الروح فكأن الإنسان لا يخرج منها لغيره من بعض ماله ، بل يتخلع من بعض روحه وهذا يقدر لك فلسفة أخرى أن السعادة الإنسانية في العطاء دون الأخذ وأن الزائفة هي في الأخذ دون العطاء ، وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق[1].

* * *

(١) راجع : وحي القلم للرافعي ٣/١١-١٤

ب - الاستفهام في بيان النبوة

الاستفهام له الصدارة فهو نوع من التقديم لذا ألحقته به :

تمهيد :

والواقع أن للاستفهام ـ كطريق من طرق التعبير ـ مكاناً اقتضاه البيان النبوي نزولاً على مقتضيات الأحوال ، ومعالجة لأدق المشاعر النبوية الكريمة ، هذه المشاعر التي كان مجرد الإفصاح والتعبير عنها بصدق خير أداة لتثبيت أغراض النبوة وتشريعاتها لها وتغيير مالا يتلاءم مع أخلاقيات الإنسان الجديد .

ولذا فقد نرى الاستفهام النبوي بين عرض وتشويق ، وتقرير وتأكيد ، وإنكار وتوبيخ ، واستبعاد وتعجب ، وتهويل ووعيد ، وعتاب وتحسير ، وغير ذلك من عالم الأحاسيس ، معبراً عن شعور أو أكثر في حالة واحدة .

وبينما نراه مسوقاً لحالة ماثلة من سلوك أو خلق أو قيمة أو تشريع نجده يتعمق في أطواء المجهول بقوة مثيرة مصوراً ـ قوى التصوير ـ غيباً مكنوناً ، أو مشهدا من مشاهد يوم الدين ، ثم هو في ومضة يجمع بين مشاعر النبي الذاتية وبين ما وجه إليه من حالات المخاطبين وسلوكهم ، فيصدق كلتا الحالتين جميعاً ، ولا شك أن الدائرة ـ الواسعة تلك ، للاستفهام أتت من خروجه من ضائق استعماله الحقيقي إلى طرقه المجازية بدلالاته المختلفة ، قال صاحب المطول «كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقته تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام ، ولا ينحصر المتولدات فيما ذكره المصنف (يعني القزويني من أغراض مجازية) ، ولا ينحصر أيضاً شيء منها في أداة دون أداة ، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب ، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته ، أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية»[1].

---

(١) المطول على التلخيص ، للتفتازاني : ص ٢٣٩

وهذا اعتراف صادق منه بسعة عالم الشعور ، ثم تنوع الأساليب ، وترجمتها بصدق عن مختلف الأحاسيس ، لذا فنحن نصب اهتمامنا على الدائرة المجازية للاستفهام .

الهمزة وأغراضها :

(١) العرض أو التشويق ترغيباً أو ترهيباً :

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة »[١].

عن أبي ذر ﷺ قال رسول الله ﷺ :« ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله » قلت : أخبرني يا رسول الله ، قال : « إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده »[٢].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على أناس جلوس فقال : « ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ » قال فسكتوا ، فقال ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل: بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا قال: « خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره »[٣].

وعنه عن النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم »[٤].

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت : بلى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله »[٥].

عن قيس بن سعد بن عبادة قال له رسول الله ﷺ : « ألا أدلك على باب من أبواب الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله »[٦].

---

(١) التاج الجامع ٧٥/٥
(٢) المرجع السابق ٩٩/٥
(٣) المرجع السابق ٣٣٨/٥
(٤) المرجع السابق ٢٤٥/٥
(٥) المرجع السابق ١٠٢/٥
(٦) المرجع السابق ١٠٢/٥

من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ : «ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» . . . الحديث[1].

عن أبي بكر عن النبي ﷺ : «ألا أخبركم بأكبر الكبائر : قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، أو قول الزور» قال فما زال يقولها حتى قلنا ليته سكت[2].

عن زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ : «ألا أخبركم بخير الشهداء ، الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»[3].

عن على كرم الله وجهه قال لي رسول الله ﷺ : «ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفر الله لك ، وإن كان مغفوراً لك ، قال : قل لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين»[4] ـ عن حذيفة قال لقد رأيتنا مع النبي ﷺ ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي في الجنة»[5].

وفي هذه المجموعة دخلت همزة الاستفهام على لا النافية ، فأفادت العرض ، والتشويق ، والأخذ بمشاعر المخاطب لتتبع ما بعدها ، ونلاحظ أن المدعو إليه أموراً خطيرة تستأهل الانتباه الخاص بما تحمل من خير أو شر ، وقد زاد الانتباه هذه الصفات التي وقعت بعد الفعل مدخولاً الأداة فرفعت درجة الإثارة ، فهنا : أفضل من درجة الصيام ، والصلاة والصدقة ، وكلام هو أحب الكلام إلى الله ـ وكلمات تغفر الذنب وإن كان مغفوراً ـ وهناك سبب الحب المدخل للجنة ـ وتمييز الخير من الشر ، وأبواب الخير وباب الجنة ، وكنز الجنة ، كما أن هناك ـ أكبر الكبائر ـ ولقد وصلت الأداة ومدخولها ، بالإثارة والتشويق إلى

---

(١) التاج الجامع ٢/٥٠
(٢) المرجع السابق ٢/٦٤
(٣) المرجع السابق ٢/٦٢
(٤) المرجع السابق ٥/٩١
(٥) المرجع السابق ٤/٤١٨

الحكم درجة جعلت المخاطبين ـ أحياناً ـ لم يستطيعوا ضبط مشاعرهم فانطلقت ألسنتهم «بلى» ، «أخبرنا» أو «بلى يا رسول الله».

كما نلاحظ أن مدخول الأداة «في العرض والتشويق» إذا كان فعلاً غلب أن يكون «أخبر ـ أدل ـ أعلم» لأن الأفعال الثلاثة تدل على مهمة التبليغ للشريعة ، وقد نرى أن الفعل «أخبر» له خطورته ؛ ولذا جاء فيما عظم أثره ، ولعل مادة الفعل نفسها دالة على نحو ما ـ أنه وحي قريب ، ومن هنا تعلم سكوتهم عن الإجابة حتى كرر السؤال ثلاثاً «ألا أخبركم بخيركم من شركم» خوفاً من فضح الأعماق ، حتى أجاب أحد الحريصين على الحق ، ويأتي الحكم بعيداً عما ظنوا مقرراً القاعدة عامة في الخير والشر .

وإذا دققنا في علاقة الإجابة «بلى» بما يثيره السؤال من إثارة ، ومدى هذه الإثارة وكيف لم تذكر في بعض الأحاديث؟ لرأينا أن الحديث «ألا أعلمك» بصيغة التعليم مدخولة لأداة العرض ملحوقة بوصف متعلق الفعل «كلمات إذا قلتهن غفر الله لك ، وإن كان مغفوراً لك» وليس أكثر من هذا الإعماق سيدنا على ـ وإثارة أشواقه فكان الجواب «بلى» وهذا نموذج لما ذكر فيه حرف الجواب ، أما حديث معاذ : «ألا أدلك على أبواب الخير» فقد جاء نزولاً على رغبة معاذ نفسه وإجابة لطلبه وشغفه بما يفيده «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار» وكان هذا كافيا إلى الاندفاع في تعليمه ، أما حديث أبي هريرة : «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا» فهو عجب من العجب فقد بدأ من النهاية والثمرة «دخول الجنة» ورتبه على الإيمان هو شعور واقع في الدنيا ، ورتب هذا الإيمان على التحاب بهذا التسلسل المثير للانتباه ثم يصعد بالشعور إلى قمته تشويقاً بالاستفهام «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم» والاستفهام والحذف وتعليل التحاب يقينًا «بإذا» على شيء يمكن فعله .

كل هذا دفع وتصعيد للانفعال ، ولا ينتظر الحديث الإجابة حتى لا يقطع التدفق الشعوري بل يندفع مباشرة إلى ما سيق له الحديث «أفشوا السلام» قولاً

وعملاً وسلوكاً وإرادة ، فبدأ الحديث بالجنة ، وختمه بالسلام ليستقر قويًا في الأعماق ، وفي حديث «ألا أنبئكم بخير الشهداء» لا يتلبث الحديث حتى يسمع إجابة تؤكد وقع الانتباه ذلك أن الاستفهام وحده كاف لا سيما أن الاستشهاد ـ وإن كان فيه ما فيه من رضوان ورحمة ـ لا تعدم النفس البشرية التلفت إلى البقاء أحياناً . وكذلك من مراعاة الطبيعة البشرية حديث حذيفة «ألا رجل يأتيني بخبر القوم» فقد ضمن العرض هنا معنى الشرط في لزوم الجزاء ، وجعله عظيماً «جعله الله معي يوم القيامة» ولذا كانت «ألا» داخلة على فعل فسره ما بعده ليصب الاهتمام ـ بعد الحذف ـ على «رجل» فيه هذه الصفة يحقق هذه الفداء .

الهمزة للعرض بدون «لا» :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان ، قلنا نعم قال : فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان»[1].

عن عبد الرحمن بن عجلان عن النبي ﷺ «أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم ، قالوا : ومن أبو ضمضم ؟ قال : رجل فيمن كان قبلكم كان إذا أصبح قال : اللهم إنى جعلت عرضي لمن شتمني»[2].

عن أنس باع ﷺ حلساً ، وقدحاً قال : «من يشتري هذا الحلس والقدح : فقال رجل : أخذتهما بدرهم ، فقال النبي ﷺ من يزيد ؟ فأعطاه رجل درهمين فباعهما منه»[3].

وفي الحديث الأول : جاء الاستفهام بالهمزة في أسلوب يثير الشوق ، والاهتمام عند المخاطب ، والاهتمام والتطلع للحصول على كرائم المال المحبوب لدى العربي ، بل لوجوده في بيته وتحت إمرته دون بذل مشاق مما

---

(١) التاج الجامع ١٨٦/١ (٢) المرجع السابق ٢٨/٥

(٣) المرجع السابق ٢١١/٢

يقوي جانب العرض والشوق إلى الحكم وهو الدعوة إلى القرآن ، بل إن كل آية خير من خلفة عظيمة سمينة ، خيرية الباقي على الفاني .

وفي الحديث الثاني ـ من هذا التشويق ـ نجد نفث الإرادة في المخاطبين مع التهوين من يسير العمل وعليه جزاء كبير : أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم» وطريقة بناء الأسلوب فيه إلهاب وتهييج بهذا الغموض ، فمن أبو ضمضم؟ وكيف يعجز أحدنا ولم نعرف بعد عمله ؟ وهل هو أشد وخير منا ؟ حتى إذا عرف ـ بعد السؤال ـ العمل اليومي الذي يقوم به أبو ضمضم قر في النفس بطريقة تربوية غير مباشرة وبقوة الترغيب ويلاحظ أن الهمزة انفردت عن لا بالجملة دون نفي ، وأفادت العرض والتشويق والاستدراج لتبني المعاني وتمثل الحكم وتدعم الغرض .

وحديث المزايدة فيه إباحة لها وترغيب بالغرض في الزيادة تشريعاً منظوراً للناس .

الهمزة للإنكار :

خرج رسول الله ﷺ في جنازة ، فرأى ركباناً فقال : «ألا تستحيون ، إن ملائكة الله على أقدامهم ، وأنتم على ظهور الدواب»[1].

قسم النبي ﷺ ذهبية لم تحصل من ترابها ، بين أربعة نفر يتألفهم ، فقال رجل من الأنصار : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، فبلغ النبي ﷺ ، فقال «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً»[2].

قال محمود بن لبيد : أخبر النبي ﷺ برجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ، ثم قال : «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟»[3].

---

(١) التاج الجامع ٣٦٩/١ .

(٢) المرجع السابق ٣٤٢/٢ .

(٣) المرجع السابق ١٥٦/٢ .

قال عبد الله بن عمرو : رأى عليَّ رسول الله ﷺ : ثوبين معصفرين فقال : «أمك أمرتك بهذا ؟ قلت أغسلهما ، قال : بل احرقهما».

وهذه الأحاديث قد تنوع فيها مدخول الهمزة بين فعل أو اسم وقد تقدم ما انصب عليه الإنكار : «ألا تستحيون ، ألا تأمنوني ـ أيلعب بكتاب الله ، أتشفع في حد ـ أمك امرأتك بهذا» وفي الأول : بهذا التوبيخ والإنكار الشديد لعدم استحياء من يركب في الجنازة غير مبالٍ برهبة الموت ، ومشاعر الناس ، وكذلك في الثاني لعدم ائتمانهم رسول الله واعتراض بعضهم على طريقته في قسمة الذهبية ، وهي جريمة يقاتل عليها ، كما نجد في الحديث «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» وقد صور الثلاث تطليقات مرة واحدة باللعب بالكتاب الحكيم ، وعيداً ونكيراً ، والجملة الحالية «وأنا بين أظهركم» تزيد منهما ، لا سيما أن القرآن يتنزل والرسول يتأول ويبلغ ، وكأن في الحديث تعريضاً بخلق يتلاعبون بالكتاب العزيز .

وفي حديث عبد الله «أمك أمرتك بهذا» قدرت همزة الاستفهام لحذفها تخفيفاً لفظيًا والإنكار على لبس المعصفر ، وإن لم يل الهمزة ، وليس المراد إنكار أن تكون الأم الآمرة بحيث لو أن غيرها أمر جاز ، ولكن المقصود إنكار الأمر من أساسه ، ذلك أن الحديث لما عرض بعدم استقلال عبد الله وانقياده وضعف إرادته كالطفل الصغير توبيخاً ، حصر الأمر باللبس في الأم لأنها عادة تلبس أطفالها ما شاءت ، ثم أنكر أن تكون الأم آمرة إنكاراً للأمر كله ، لأنه لا آمر سواها ، ولا يخفى ما في كل هذا من تبكيت يزلزل النفس ، ويهز الأعماق ومسحة من سخرية خفيفة ، ولقد عقب البيان على قول عبد الله الخائف «أغسلهما» بقوله «بل احرقهما» بما يوائم هذا الشعور الجارف لغرس الرجولة المبكرة في نفوس الشباب ، وأخذهم بالحزم حتى يكونوا قادة نافعين .

الهمزة للتقرير :

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي ، فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبيًا في السبي ، أخذته ، فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر أن لا تطرحه ، فقال رسول الله ﷺ «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1] .

عن المستورد بن شداد قال : «كنا مع الركب الذين وقفوا مع النبي ﷺ على السخلة ميتة فقال رسول الله ﷺ : «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ، قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله قال : فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[2].

عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال : «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، قال قتادة : بلى وعزة ربنا»[3].

عن المغيرة عن النبي ﷺ : أن كان النبي ﷺ ليقوم يصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول «أفلا أكون عبداً شكوراً»[4].

ونلاحظ في الحديثين الأوليين : القصد إلى تكوين صورة تشبيهية خاصة ولما كان المشبه بعيداً عن الخاطر غير محسوس قدم أولاً المشبه به المنتزع من حالة حاضرة تراها العيون وتتفهمها العقول ، وقد دخلت الهمزة زيادة في تقرير المشبه به ، فالمخاطب هنا يشترك مع المتكلم مشغول الحس والخيال ، في تتبع الاستفهام وتكوين الصورة «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار» أترون هذه هانت على أهلها ، ومثل هذه الأحكام معروفة سلفاً ولكن الاستفهام بما له من جذب وإثارة يقررها ويرسيها في الوعي ، وإذ يتقرر في

---

(١) التاج الجامع ١٥٨/٥
(٢) المرجع السابق ١٦٠/٥
(٣) المرجع السابق ١٦٥/٤
(٤) المرجع السابق ٣٨/٥

الجميع مضمون الاستفهام سلباً أو إيجاباً ينتقل الحديث للمشبه ، وهو المقصود إليه : «تثنية الرحمة الواسعة إلى الله على عباده» ـ «تفاهة الدنيا وهوانها على خالقها» وتلك أمور خطيرة لا يدركها الحس ، فشغل الأسلوب بالتنظير والاستفهام منافذ الحس ومجامع الملكات النفسية لتحقيقها وتمثيلها بالواقع المنفرد بسمات خاصة إقراراً وإمتاعاً ، وإقناعاً .

والحديث : «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة «الهمزة هنا للنفي ، دخلت على أداة نفي فأفادت التقرير ، وحمل المخاطب عليه وهو مراد من قال إن الهمزة للتقرير والمقرر به ما دخله النفي وهو ما يعرفه المخاطب من ذلك الحكم[1] وهو برهان قوي إذ القادر الذي خلق الإنسان من عدم وأمشاه على رجلين ، ما أهون أن يمشي الكافر على وجهه في النار ، عقابًا لوجه لم يسجد لخالقه فليكن الوجه في موضع الأقدام لا على الثرى بل على حجرات متلهبات ، وقد انتزع الدليل الذي سيق في صورة الاستفهام التقريري من قتادة هذا الاعتراف السابق الخالص «بلى وعزة ربنا» .

والحديث «أفلا أكون عبداً شكوراً» رد على سابق كلام وهو كثرة العبادة النبوية مع مغفرة الله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهذا توفيق ومنة تستدعي مزيداً من الشكر ، والحكم هنا يتقرر عند المتكلم والمخاطب جميعاً ، وهو ثابت عند المتكلم ، فلم يبق إلا المخاطب يحمل عليه ، لإزالة ما بنفسه من خطأ منشؤه اعتقاداً بأن المغفرة التامة لا تتطلب جهداً في العبادة كأن الجد في العبادة لا يكون إلا لطلب المغفرة ، لسالف ذنوب ، فبين لها وجهاً آخر هو مزيد الشكر والثناء .

---

(١) المطول : ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

التسوية مبالغة :

جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم دخل المسجد فصلى خلف النبي ﷺ ثم أتى راحلته فأطلقها ، ثم ركب فنادى «اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا تشرك في رحمتنا أحداً فقال رسول الله ﷺ «أتقولون هل أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا إلى ما قال ؟ قالوا : بلى»[1].

عن أنس عن النبي ﷺ : «مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره ؟»[2].

والأعرابي ـ في الأول ـ استخفه الهوى ، ودفعه ضيق النحيزة وشهوة «البيان العاجز فسجل على نفسه الحمق والغباء ، ولما كان المخاطبون لا يبلغ بهم أن يجعلوا البعير مثل راكبه في الضلال والحمق ، سوى بينهما البيان النبوي ، ورفع ما بينهما لأن الأعرابي تحجر واسعاً وقصر الرحمة الإلهية على اثنين من البشر ، مبالغة تشبيهية قوية» .

وفي حديث أنس قد يظن امرؤ أن نهاية الأمة سيئ بالنسبة لما قبلها لا سيما أن نصوصاً نبوية قوت هذا الظن كالحديث «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» . . . ويقيني أن حديث «خير القرون قرني» يعالج خيرية الفرد ، ويصل إلى أعماقه مبيناً قوة اليقين وشفافية الروح ، أما حديثنا فهو مهتم بالخير العام ، والنظر إلى الأمة جمعاً ولاشك أن وجود ما يقرب من ألف مليون مسلم ينطقون الشهادتين ويعلو أذانهم ، خير كبير لذا كان التصوير بالمطر وهو المعلوم لهم ثم التسوية بين صدر الأمة وآخرها نفي لما سبق من وهم ، ودفع للأمة ـ آخر الزمان ـ أن تنهج منهج الأسلاف .

ونلاحظ : حذف أداة الاستفهام «الهمزة» ودلت «أم» المعادلة عليها ، مع دخولها على مفرد ، فهي للتصور .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٨ (٢) المرجع السابق ٢/٤٢٨

العتاب والإشفاق والتعجب :

عن أبي هريرة «أن رجلاً أسود ـ أو امرأة سوداء ـ كان يقم المسجد فمات ، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا : مات قال : أفلا كنتم أذنتموني ، دلوني على قبره فأتى قبره فصلى عليه»[1] .

وفي الحديث أفادت الهمزة الداخلة على جملة فعلية معنى العتاب والتنديم على عدم إعلامهم بموت الشاب ، وفيه الدلالة على فيض الرحمة النبوية ، ثم فيه من طرف آخر ترغيب في خدمة المساجد وأنها قربة عظمى .

عن كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ مر به زمن الحديبية ، وهو يوقد تحت قدر له ، والقمل يتناثر على وجهه فقال له : آذاك هوام رأسك ؟ قال نعم فقال النبي ﷺ «أحلق رأسك ، ثم اذبح شاة نسكاً وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ثلاثة آصع على ستة مساكين»[2].

وكعب التزم بالإحرام فلم يغسل شعراً ولم يحلق ومر به النبي فرآه في حالة يرثى لها فتأثر وانطلقت الرحمة على لسانه ألفاظاً منسابة مصدرة بالاستفهام «آذاك هوام رأسك» إن قوة الإيمان في نفس الصحابي ، وعظمة الرحمة عند نبي الرحمة ، ويسر الدين يأمر بإزالة الشعر ثم الافتداء ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه .

عن أبي هريرة قام رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الصلاة في الثوب الواحد فقال «أو كلكم يجد ثوبين»[3] والاستفهام هنا يحمل معنى التعجب والدهشة من طريقة تفكير الرجل فما المانع من الصلاة في الثوب الواحد ، وهل كل يجد ثوبين ونلمح هنا مسحة من التهكم للتوجيه إلى السؤال العميق عن المفيد .

---

(١) التاج الجامع ٢٣٩/١ (٢) المرجع السابق ١٦٧/٢

(٣) المرجع السابق ١٥٦/١

باقي الأدوات :

لا شك أن الهمزة أم الباب ، وأوسعه انتشاراً ، واستعمالاً ، ولذا كثرت في البيان النبوي فهي خفيفة نطقاً يسأل بها عن الفرد والجملة أعني للتصور والتصديق ، وقد تومئ إلى حكم يقرر أو ينكر ـ غير مذكور ـ أما باقي الأدوات فليس لها هذه الميزات ولذا جمعناها في قرن واحد ، ونقتطف هذه الأغراض التي تأدت بها :

الإنكار والتهديد :

أ- المجموعة الأولى

عن جابر : كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا الأنصار ، وقال المهاجري يالمهاجرين ، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية ، قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار : « فقال دعوها فإنها منتنة »[1] .

عن عائشة رضي الله عنها : أرادت أن تشتري « بربرة » فاشترط أهلها الولاء لهم ففعلت عائشة ، وقام رسول الله ﷺ في الناس « فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق وإنما الولاء لمن أعتق »[2].

عن أبي حميد ، قال : استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأسد يقال له « ابن اللتبية » على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي إليَّ ، فقام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليَّ أفلا قعد في بيت أبيه ، أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ »[3].

---

(١) التاج الجامع ٤/٢٦٣

(٢) المرجع السابق ٢/٢٠٢

(٣) المرجع السابق ٢/٥٤

ونلاحظ في الأحاديث تكرار عبارات خاصة تعبر عن الإنكار والغضب وهذه العبارة «مابال» صيحة معبرة عن انفعال غاضب، وإنكار جارف لحالات سلوكية خارجة على روح الشريعة، فاستصراخ العصبية وجه للجاهلية قبيح وأده الإسلام وابتعاثه مثير للثورة، ومن يشترطون الولاء وهم لا يملكون العتق متعصبون، وهذا المستأثر للهدايا باسم العمل من مال المسلمين خائن استهواه الشيطان ولفظاعة هذه الحالات عقب الأسلوب بما يرسخ الوعيد والنكير «دعوها فإنها منتنة» «ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل» وإن كان مائة شرط «أفلا قعد في بيت أبيه، أو في بيت أمه» استفهام آخر إنكاري استدعته حال المستأثر، لتربية الأمانة والتعفف، ومعالجة أمراض الشح والطمع، ونلاحظ توجيه الخطاب ـ حتى في الحالات الفردية ـ للجماعة وهكذا كان الأدب النبوي، فما كان ليفضح أحداً أو يثني عليه أمام الملأ، بلى جاء التعبير الشامل تعليماً وستراً، ثم إن هذه أنجع الطرق التربوية في تقويم السلوك وإصلاح الفاسد.

ب ـ المجموعة الثانية

جاء رجل إلى النبي ﷺ وعليه خاتم من شبه (نحاس) فقال له: «مالي أجد منك ريح الأصنام؟ فطرحه، ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: مالي أرى عليك حلية أهل النار؟ فقال: يا رسول الله: من أي شيء اتخذه قال: اتخذه من ورق، ولا تتمه مثقالاً»[1].

عن جابر بن سمرة: قال: دخل النبي ﷺ المسجد وهم حلق فقال: «مالي أراكم عزين»[2].

والتعبير هنا «مالي» ترجمة عن شعور مائج بالإنكار، ومحل الإنكار تختم المخاطب في ـ الأول ـ بالنحاس والحديد وهي حالة لم يذكر في الأساليب إلا دليلها المنفر كأنه سبب الإنكار والحرمة وليس محلهما، ثم اختيار الألفاظ

---

(١) التاج الجامع ١٥٨/٢ (٢) المرجع السابق ٢٦٥/٥

القوية لمعنى الاستفهام «كريح أصنام» بما لها من نفور ووقع بغيض في نفس المسلم ، و«حلية أهل النار» بما تومئ من ترهيب وتخويف يدفع بالإنكار إلى ذروته ، ونلاحظ في هذه الحالة وحالات قادمة توجيه الإنكار إلى فرد واحد لشذوذه عن المجموع واستدعاء حالته توجيه الإنكار له ، ولكل داء دواء خاص يستطب به وسلوك في علاجه .

والحديث الأخير : ذكر محل الإنكار ـ وهو تفرق الناس حلقات وليس أدعى للإخلاص في العبادة من الاجتماع عليها ، ولا أبغض وأعون على سيطرة الشيطان من التفرق خاصة في المسجد ؛ لذا تلبس الإنكار بالأسلوب معبراً موبخاً متوعداً .

ج ـ المجموعة الثالثة

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ رأى قبة مشرفة فقال : ما هذه ؟ قالوا لفلان الأنصاري ، فسكت وحملها في نفسه ، ثم هدمها الأنصارى فقال : «أما إن كل بناء وبال على صاحبه ، إلا ما لا إلا ما لا : يعني ما لا بد منه»[1].

كان النبي ﷺ في سفر فسمع لعنة فقال : ما هذه ؟ قالوا فلانة لعنت راحلتها فقال النبي ﷺ : «ضعوا عنها فإنها ملعونة»[2].

مر النبي ﷺ برجل يبيع طعاماً فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحى الله إليه : أن أدخل يدك فيه ، فأدخل يده فإذا هو مبلول ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال أصابته السماء يا رسول الله ، قال : «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ؟ ثم قال : من غش فليس مني»[3].

وقد دخلت ما الاستفهامية للإنكار على اسم الإشارة القريب مشاراً به إلى محسوس منكر خارج عن الدين ، أو كلمة وقعها بغيض ، أو حالة تفضح

---

(١) التاج الجامع ١٦٥/٥ (٢) المرجع السابق ٣٥١/٤

(٣) المرجع السابق ١٩٧/٢

صاحبها بالغش والخيانة ، كما في قبة الأنصاري «ما هذه» وفي كلمة اللعنة «ما هذه» وفي الطعام المغشوش «ما هذا» وقد صحب الإنكار مقتضاه ، فأعرض النبي ﷺ عن صاحب القبة ، ووضع عن الناقة رحلها وأتبع الاستفهام الإنكاري بآخر توبيخي «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس» ثم أتبعه بتقرير ما يسوء الغاش «من غش فليس مني» .

متفرقات في الإنكار :

دخل النبي ﷺ حائطاً للأنصار فرأى جملاً ، فلما رأى النبي حن وذرفت عيناه فمسح ذفراه فسكت فقال : من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يا رسول الله ، قال «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتذنبه»[1].

عن أبي الدرداء : كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مشاحنة ، فغضب النبي ﷺ وتغير وجهه ، فلما رأى عمر قال «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لي صاحبي مرتين» فما أوذي بعدها[2].

وفي الأول : نرى الانفعال الذي يغلي في النفس الطاهرة لظلم حيوان أعجم ونحس بهذه الثورة في استفهامات إنكارية متوالية تسجل ارتفاع درجات الشعور المتزايد في صدق ثم أثرها في المخاطب : «لمن هذا الجمل» بعد من رب هذا الجمل ؟ فإذا جاء الفتى خائفاً بلغت قوة الغضب والتأنيب مداها «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة» والحرص على الإشارة لفت للمخاطب ليقف على أثر تعذيبه ، ثم التعبير بالبهيمة زيادة تجسيد للألم الواقع على حيوان بهيم يتألم ولا يبين ، ثم إن هذه الاستفهامات تنقل أيضاً حرارة العاطفة النبوية في رحمتها التي شملت الطبيعة بما فيها .

---

(١) التاج الجامع ٣٥٣/٤ (٢) المرجع السابق ٣٠٧/٢

والحديث الآخر : هل أنتم تاركو لي صاحبي «نلاحظ أن الحكم المنكر واقع حال لم يذكر في الأسلوب ، ولقد توجه الخطاب إلى الجميع ، والمقصود عمر أدباً نبويًا مطبوعاً وزجراً لكل من يريد إيذاء الصديق ، فكأنه حسم لقضية عامة ، ولقد أتى بالأداة «هل» لأنها نص في الحكم والإثبات ، وهو ترك المخاطبين صاحبه وأتى بالجملة اسمية مع أن هل مثل «قد» خاصة بالفعلية للدلالة على كمال العناية بحصول ما سيتجدد من الحكم إبرازاً له في معرض الموجود إثباتاً له وتنبيهاً إليه[1] .

وهذه الطريقة في النظم الذي تكرر مرتين دلت على غضب ووعيد ، واكب التغييرات العضوية في وجه النبي ﷺ ليكون إنهاء لكل إيذاء يمكن أن يوجه إلى الصديق العظيم ، لذا كان تعليق أبي الدرداء : فما أوذي بعدها .

التعجب :

وهو شعور ينقله أسلوب الاستفهام خروجاً على طبيعته .

قال أبو سعيد «دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة قال : هموم لزمتني ، وديون يا رسول الله ، قال أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ، قلت : بلى يا رسول الله ، قال إذا أصبحت وإذا أمسيت قل : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[2].

عن جابر بن سمرة قال : «صليت مع رسول الله ﷺ فكنا إذا سلمنا قلنا بأيدينا : السلام عليكم السلام عليكم ، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فقال «ما شأنكم تشيرون بأيديكم : كأنها أذناب خيل شمس : إذا سلم أحدكم فليلتفت إلى صاحبه ، ولا يومئ بيده»[3].

---

(١) المطول ص ٢٣١

(٢) التاج الجامع ٥/١٣٩-٢٠٠

(٣) المرجع السابق ١/٢٠٥

والحديث الأول جاء التعبير «مالي أراك جالسا» يعبر عن دهشة وعجب من رجل جالس في غير وقت صلاة وليس من عادته هذا الجلوس ، مع الاهتمام والعناية بأمره، وحين ألم الرسول ﷺ بجملة حاله بدأ بهدايته وتعليمه، وجاء الاستفهام الثاني «ألا أعلمك كلاماً . . .» تشويقاً وقسراً للانتباه ، واستدراجاً لتثبيت ما يلقى إليه حتى يضمن حفظه ، وتنفيذه ، ثم علمه الدعاء المبارك الذي نفعه الله به .

والحديث الثاني دخل الاستفهام على جملة ترسم لوحة فريدة فعشرات الأيدى في لحظة واحدة تتحرك في سرعة منقلبة من باطنها إلى حدها وتعقبها الشمائل بنفس الحركة في الاتجاه الأيسر ، وابتداع هذه الحركة يثير العجب فيأتي لها البيان بصورة أعجب متحركة تعبر عن القلق مسبوقة باستفهام يعين على هذا الشعور ، فليتصور الخيال أعداداً من خيل مستوقزة جامحة تطوح أذنابها دوما ميمنة وميسرة كأن وفرة النشاط تظهر في الأذناب ، وهي على العموم خفة لا تناسب الصلاة وما فيها من خشوع ونلاحظ هذا التلاؤم بين انفعال الدهشة والتعجب ورسم الصورة المدهشة العجيبة مما جعل الحديث كله نقطة من السحر والفن الخالد .

الاستبعاد :

وقد تأتي بما وكيف وأين في الأحاديث التالية :

عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام ، وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله : لو اتخذنا لك ، فقال : «مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[1].

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ : «كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ»[2].

---

(١) التاج الجامع ٥/١٧٧ (٢) المرجع السابق ٥/٣٦١

من حديث أبي هريرة : «وذكر الرجل يطيل الشعر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذي من حرام فأنى يستجاب لذلك»[1] .

والأساليب المجازية للاستفهام «مالي وللدنيا ، كيف أنعم» تفيد الاستبعاد من إقباله ﷺ على الدنيا والتعليم لأمته أن يجعلوا الآخرة لا للدنيا همهم وفي هذا الاستبعاد يشع الورع والزهد ، والخوف من الله .

وفي الحديث الثالث : بعد أن ذكر مبررات الحكم يرسم صورة متلاحقة الأجزاء رجل أشعث ـ أغبر ـ يمد يده إلى السماء ـ ألفاظه تواكب حركاته ـ يا رب يا رب ، وتنفذ الصورة إلى أعماقه وخفي أمره ، طعامه وشرابه وملبسه حرام لتوضح زيفه وخداعه كل هذا مهد للحكم في صورة الاستفهام : أنى يستجاب لذلك .

ويلاحظ أن الاستفهام لاستبعاد الإجابة ، وأن اسم الإشارة للبعيد كأنه مبعد من كل ناحية كما كان خداعاً في كل أموره .

التهويل :

عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال : «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن . من يوقظ صواحب الحجرات ؟ يا رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة»[2].

وهذه الليلة التي استيقظ فيها نبي الله عليه الصلاة والسلام كشف الله عنه الحجب فرأى وعلم من تقديرات الله في كونه كل مهول مخوف ، ولقد صدر الحديث بأسلوب التعجب السماعي «سبحان الله» ثم جاء الاستفهام «ماذا أنزل الليلة من الفتن» وكأنه تنزيل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، أو تقدير وقضاء ، وبناء الفعل للمجهول ، ووجود الفتن بلفظها جمعاً ليساعد في هذا

---

(١) التاج الجامع ١٨٢/٤ (٢) المرجع السابق ٣٥١/١

الجو التهويلي التخويفي الذي أشعه الاستفهام كما نلحظ التفخيم في الاستفهام بعده «ماذا أنزل من الخزائن» وهو تفخيم مشوب بالعجب والانبهار من تمام فضل الله الذي لا يغيض . كل هذا يوقظ الخوف من الله والتشمير للعبادة ، ولذا جاء الاستفهام الثالث فيه معنى الرجاء «من يوقظ صواحب الحجرات» استجابة لداعي العبودية والتقديس لله تعالى .

تغيير المفاهيم :

عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «ما تعدون الرقوب فيكم ؟ قلنا الذي لا يولد له . قال ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً ، قال فما تعدون الصرعة فيكم ، قلنا الذي لا يصرعه الرجال ، قال : ليس ذاك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما المفلس ، قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[2].

والاستفهام يمثل جانباً من الثورة الإسلامة في تغيير المجتمع الجاهلى ، وتبديل قيمه ، وسحق باطله بالدعوة الحكيمة والتدرج في العلاج ، والتلطف في التغيير والاستفهامات ما تعدون الرقوب؟ ما تعدون الصرعة ؟ أتدرون ما المفلس؟ ليس المراد معرفة إجاباتها لذاته ، بل لتغيير مفهومها وإبدالها بما يتلاءم والدعوة ، والغرض هنا التدرج لتغيير مفهوم وتحديده من جديد ، ولا شك أن البلاغة في هذا التدرج لأنه توزيع للموضوع على مشاعر النفس على مرات ، تتعقله ثم تؤمن به لا سيما أنه تغيير إلى أفضل بالارتقاء الخلقي

---

(١) التاج الجامع ٤٨/٥ (٢) المرجع السابق ٢٠/٥

والنفسي ، أو تعليقها بالسلوك الطيب والخبيث عند الإنسان كالمفلس مثل ، ولا يخفى جانب الترغيب في الأولين والتحذير في الأخير .

الإلزام والحجاج :

عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال : «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لن يدعهن الناس : النياحة والطعن في الأحساب ، والعدوى : أجرب بعير فأجرب مائة بعير ، من أجرب الأول؟ والأنواء مطرنا بكذا ، وكذا»[1] .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : قال : «لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال أعرابي يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب ويجربها كلها قال : فمن أعدى الأول؟»[2].

والاستفهام هنا مثل على الحجاج النبوي ، بقوة إلزامه ، وشدة الإقناع الذي يلجم فلا يملك أحد دفعاً «أجرب بعير فأجرب مائة بعير فمن أعدى الأول؟» وردًّا على كلام الأعرابي «فمن أعدى الأول» والبرهان المصدر بالاستفهام لا يتوقف عند الماثل الجزئي بل يتعمق العقل أصل المشكلة والبحث في جذرها ، فقد نرى أثر العدوى ، حسن فلنطرح هذا السؤال أول بعير أو فرد ، كيف أصيب بالمرض المعدي ، وإنه لسؤال يحار العقل فيه ؟ ولكن لماذا؟ إن القضية واضحة أن العدوى لا تؤثر بذاتها ، وإنما كل شيء بتأثير القدر والقضاء الإلهي الذي وقع وفق مشيئة الله سبحانه ولا ينافي هذا أن نفر من الشر والأذى ، ومنه صاحب المرض المعدي .

الإيناس :

عن ابن عمر : اشتكى سعد بن عبادة : فعاده النبي وقد غشي عليه فقال : قد قضى؟ قالوا لا يا رسول الله ، فبكى رسول الله ﷺ فلما رأى القوم بكاءه بكوا ،

---

(١) التاج الجامع ٣٤٣/١

(٢) المرجع السابق ٢٢٠/٢

فقال : «ألا تسمعون : إن الله لا يعذب مدمع العين ، ولا محزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم»[1] .

سؤاله ﷺ لشاب كان في مرض موته «كيف تجدك»[2].

والاستفهام هنا «ألا تسمعون» ، «كيف تجدك» فيه إيناس ورقة رحيمة مناسبة لحال خاصة ، ففي الأول : نجد الحضور قد احتواهم شعور واحد ، ونبض واحد ، وقد يقع في الوهم مخالفة بكاء النبي لما عرفوه في الإسلام ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن وجههم بلطف ورجاء وإيناس لمعرفة الحقيقة وهو أن الحزن شعور لا يدفع والدمع منفس عنه ، ولكن المنع والجزاء يدوران حول صياح اللسان ونياحته وحصائده ، وقد جاء الاستفهام دلالة على اللطف والقرب مناسبة لحالة مؤثرة هي مرض بطل عظيم من أبطال الإسلام .

والاستفهام الثاني فيه هذا الإيناس الرحيم المناسب لمرض شاب يوشك أن يفارق الحياة .

العتاب :

قال أنس : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ، ولا لعاناً ولا سباباً كان يقول عند المعتبة «ماله ترب جبينه»[3]. والاستفهام «ماله» فيه جانب من روح النبوة فهنا العتاب الرقيق واللوم الخفيف الرفيق تناسب لحال المعتبة وأدب النبوة ثم هذه اللازمة «ترب جبينه» أسلوب عربي وتعبير لغوي يقال في حالات التودد التي لا عنف فيها ولا صخب .

وهكذا :

نجد الاستفهام النبوي قد طوف معبراً عن شتى المشاعر الإنسانية ، بصدق ، وكان طباق ما قصد له ، من معالجة حالات عند المخاطبين يستوعبها

---

(١) التاج الجامع ٣٣٨/١

(٢) المرجع السابق ٣٤٦/١

(٣) المرجع السابق ٣٦/٥

شعورياً ، مع اقتضاء النظم تقديم ما انصب عليه الاستفهام المجازي ، طبعاً بلا تكلف ـ كما لاحظنا أن الهمزة كانت أكثر الأدوات استعمالاً وتأدت بها جملة من الأغراض ، التي دار معظمها حول وجهات الدعوة ، وكذلك باقي الأدوات كما وجدنا تعبيرات خاصة شاعت في البيان النبوي في حالة الإنكار غالباً : ما بال كذا ، مالى كذا ، ما هذا كما رأينا تجاوب النظم كله لأداء الغرض الذي صدر بالاستفهام ، كما لحظنا نجاح الاستفهامات في إحداث الأثر المباشر عند المخاطبين فأثارت عواطفهم وغيرت سلوكهم ، وهذا معيار الصدق الفني والنجاح الأدبي .

* * *